الفصل الرابع

الاستعمار الأسبانى فى أفريقيا

المحتويات :

١ - نشاط الأسبان الاستعمارى والكشفى فى أفريقيا.

٢ - دورهم المحدود فى أفريقيا والسبب فى ذلك.

٣ - الصراع الأسبانى العثمانى فى ثغور البحر المتوسط الأفريقية.

٤ - دورهم فى المغرب العربى.

٥ - سياستهم فى حكم منطقة نفوذهم بالمغرب.

٦ - حركة المقاومة الوطنية فى المغرب للاستعمار الأسبانى.

٧ - نهاية الاستعمار الأسبانى فى المغرب.

كان للأسبان دورا بارزا فى أوائل حركة الكشوف الجغرافية الحديثة لكن الأسبان لم يلعبوا دوراً حاسماً فى أفريقيا باستثناء دورهم فى شمال غرب القارة (المغرب) وفى غربها (الصحراء الغربية).

ويرجع ذلك للأسباب التالية:

١ - ظلت أسبانيا حتى نهاية القرن الخامس عشر مشغولة فى مطاردة العرب حتى سقطت غرناطة آخر معقل للعرب فى الأندلس فى عام ١٤٩٢.

٢ - بقيت أسبانيا مدة مقسمة إلى ممالك فلم تستكمل وحدتها إلا بعد زواج الملك فرديناند والملكة إيزابيلا.

٣ - شُغلت أسبانيا بعد ذلك بإمبراطوريتها فى جزر الهند الغربية، وأمريكا (المكسيك، وبيرو، وفلوريدا) ومعظم أمريكا الجنوبية عدا البرازيل التى كانت من نصيب البرتغال.

٤ - زجت أسبانيا بنفسها فى سلسلة من الحروب فى أوروبا بسبب الرغبة فى التوسع داخل القارة وقد استطالت هذه الحروب خمسة وستين عاماً (١٤٩٤ - ١٥٥٩) وكانت شبه الجزيرة الإيطالية ميدانها - لكن الصراع كان بين الجيوش الفرنسية والأسبانية، وقد استنزفت هذه الحروب جهود أسبانيا البشرية والمادية وشغلتها عن أى نشاط آخر.

٥ - سياسة التعصب المذهبى التى أتبعها ملوك أسبانيا واستعانتهم بمحاكم التفتيش التى سلطوها للفتك بالبروتستانت والمسلمين واليهود وغيرهم الذين اعتبروهم ملحدين، فأساءت إلى أسبانيا واستنزفت جهودها فيما لا طائل منه.

٦ - الصراع بين الأسبان والدول البحرية الأوروبية الأخرى التى بدأت تظهر فى ميدان الاستعمار وفى مقدمتها إنجلترا التى نجحت فى تدمير الأسطول الأسبانى (الارمادا) فى عام ١٥٨٨.

فالمشكلات التى واجهتها أسبانيا فى أوروبا بالإضافة إلى مشاغلها فى أمريكا

استنزفت جهود الأسبان وصرفت أنظارهم عن المزيد من المغامرات فى القارة الأفريقية.

نشاط الأسبان الكشفى والاستعمارى فى أفريقيا:

أولاً - جزر كناريا:

منذ منتصف القرن الخامس عشر (١٤٧٦) وقعت جزر كناريا فى أيدى الأسبان وكثر عدد المهاجرين الأسبان إلى هذه الجزر واختلطوا بالسكان الأصليين وتزوجوا منهم.

وأدت هذه الجزر خدمة جليلة للأسبان فاستخدموها كمحطة بحرية لسفنهم التى تعبر المحيط الأطلنطى خلال الخمسين سنة الأولى من اكتشاف واستعمار الأمريكتين.

ولقد أدركت إنجلترا أهمية موقع جزر كناريا لها كدولة بحرية بالإضافة إلى ملاءمة مناخها فأرسلت قوة للاستيلاء عليها - لكن عجزت القوة الإنجليزية فى التغلب على مقاومة أهالى هذه الجزر والمستوطنين الأسبان، ونجحت السياسة التى إتبعتها أسبانيا فى حكم هذه الجزر وإدارتها - إذ سمحت بإقامة حكومة شبه مستقلة فيها من سكانها والمستوطنين الأسبان - فى إتاحة الفرصة لهذه الجزر للتقدم والتمتع بالهدوء.

وفى القرن التاسع عشر حين اشتد الصراع الاستعمارى الأوروبى على القارة الأفريقية حاولت أسبانيا مد نفوذها على الساحل الأفريقى المقابل كما سنوضح بعد.

ثانياً: مدن وثغور شمال أفريقيا والصراع مع العثمانيين:

بعد أن تخلص الأسبان من العرب بعد سقوط غرناطة آخر حصن عربى فى الأندلس فى عام ١٤٩٢ تتبعوا العرب فى المدن الساحلية على الشاطىء الشمالى للقارة المواجه لهم فاحتلوا مليلة، ووهران، والجزائر، وسوسة، وصفاقس وغيرها من مدن وثغور شمال أفريقيا.

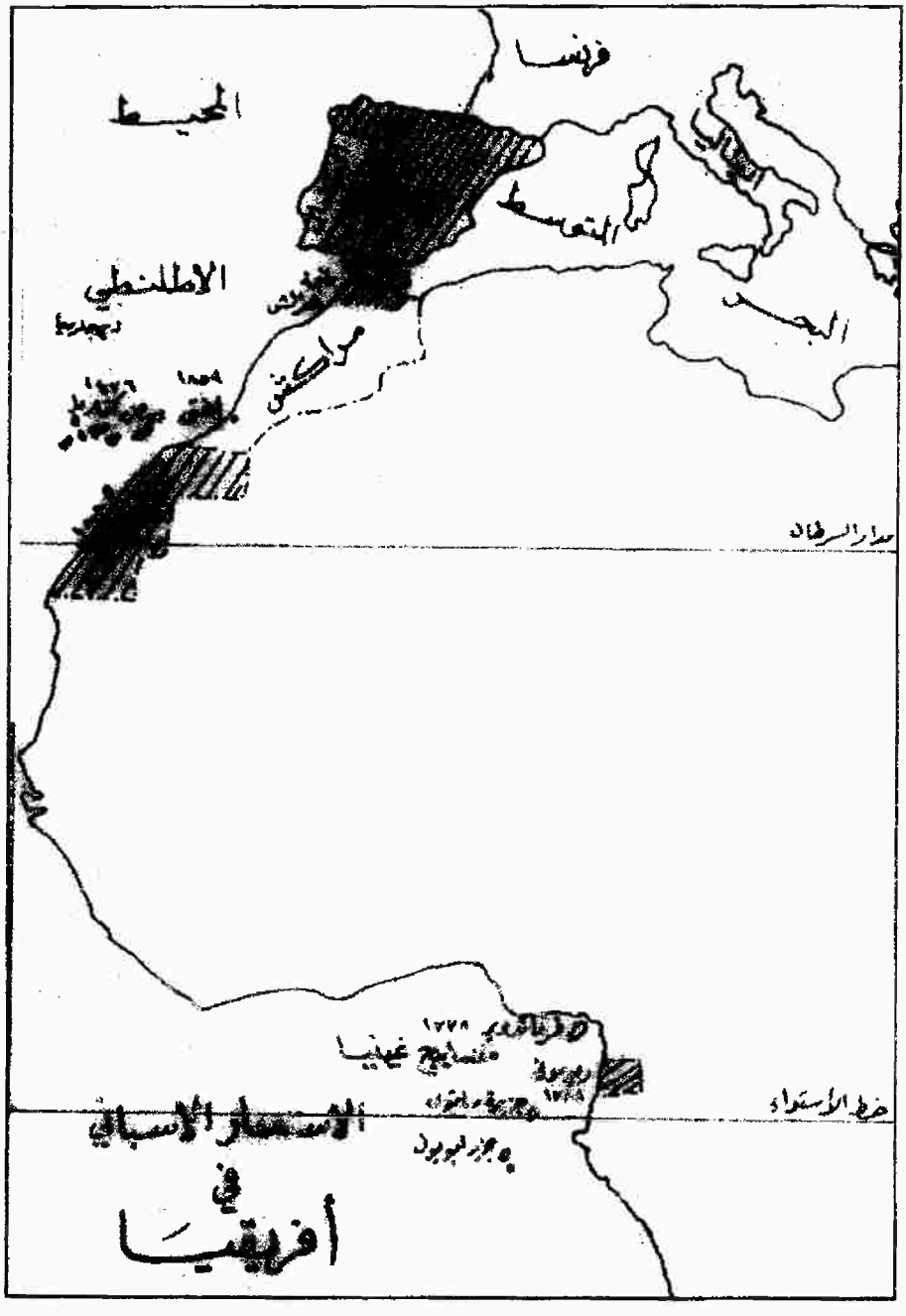

شكل رقم (١٠) الاستعمار الأسبانى فى أفريقيا .

وكانت الأوضاع فى الشمال الأفريقى سيئة فقد قامت بهذه البلاد منذ سقطت دولة الموحدين (١٢٦١) إمارات متنافسة فى تونس والجزائر ومراكش.

على أن أطماع الأسبان فى مدن شمال أفريقيا وثغورها أدت لاصطدامهم بالعثمانيين الذين كانوا يمثلون القوى الرئيسية فى الشرق العربى - فقد أعلن (خير الدين بربروس) فى الجزائر ولاءه للسلطان العثمانى ليستند على قوة العثمانيين فى صراعه مع الأسبان وهكذا أصبحت الجزائر ولاية عثمانية.

وكان الأسبان قد استولوا على وهران وبنوا فى جزيرة مقابل الجزائر (Peu on) حصن مقابل الجزائر واتجهت أنظارهم إلى تونس التى كانت تحت حكم الحفصيين.

وحاول العثمانيون بمساعدة حكامهم فى الجزائر مد نفوذهم إلى تونس فلجأ الأمير الحسن الحفصى للأسبان، وهكذا اشتد الصراع بين الأسبان والعثمانيين[1].

وقد جرد شارل الخامس ملك أسبانيا عام ١٥٤١ قوة كبيرة للاستيلاء على الجزائر لكن تعرض الأسطول الأسبانى لعواصف وأمطار عرقلت وصوله لأهدافه.

وانتهى الصراع العثمانى الأسبانى فى تونس فى عام ١٥٧٤ حين تمكنت حامية عثمانية بقيادة (سنان باشا) من القضاء على آخر أفراد الأسرة الحفصية التى كانت تعتمد على مساندة الأسبان.

وحاول الأسبان عام ١٥٩٢ الاستيلاء على جزيرة جربا - لكنهم مُنوا بهزيمة منكرة وقبل نهاية القرن الثامن عشر كانت أسبانيا قد جلت عن معظم الأقاليم التى استعمرتها فى شمال أفريقيا ما عدا مليلة (Melila) وسبته (Ceuta) التى آلت إليها من البرتغال بعد احتلالها للبرتغال ذاتها فى القرن السادس عشر أيام فيليب الثانى ملك أسبانيا، ولا زال هذان الثغران المغربيان فى يد الأسبان إلى الآن.

---

(١) سنشير بشىء من التفصيل لذلك عند الحديث عن الاستعمار الفرنسى - فى الفصل التاسع.

ثالثاً - المغرب الأقصى (مراكش):

جاء استيلاء فرنسا على تونس عام ١٨٨١ نذيراً للأسبان بألا يتركوا الفرصة تضيع منهم لغيرهم من الاستعماريين - فشجعت الحكومة الأسبانية هجرة رعاياها للساحل الأفريقى المقابل - لكن لم تستطع أسبانيا أن تتخذ خطوة فعاله تحقق بها أطماعها مع الدول الاستعمارية الأخرى إلا بعد أن فقدت أغلب مستعمراتها فى أمريكا والمحيط الهندى، وتمثل نشاط أسبانيا الاستعمارى فيما يلى:

١ـ استولت أسبانيا على مدينة إفنى (Ifni) بموجب معاهدة عقدت بينها وبين المغرب فى عام ١٨٥٩.

٢ ـ كما استطاعت أسبانيا فى الفترة التى وصل فيها التنافس الاستعمارى بين الدول الأوروبية مرحلة الصراع منذ ١٨٨٤ - أن تقوى نفوذها فى المنطقة الساحلية المواجهة لجزر كناريا فرفعت علمها عليها سنة ١٨٨٥ وأطلقت عليها إسم **ريودى أورو** (Rio de Oro)، وأعلنت أسبانيا حمايتها على المساحة الممتدة من الرأس الأبيض إلى رأس بوجادور، وقد أطلقت عليها اسم **(الصحراء الأسبانية)**، وأصبحت لهذه المنطقة أهمية خاصة بعد اكتشاف الفوسفات فيها.

٣ ـ وكانت أسبانيا تطلع لتوسيع نفوذها فى المغرب خاصة فى الجهات المحيطة بمناطق نفوذها فى مليلة وسبته.

وكانت حالة المغرب سيئة فالفوضى تضرب أطنابها فى الإدارة ووصلت الحالة الاقتصادية إلى درجة كبيرة من السوء[١].

لكن كانت تتنافس على النفوذ فى المغرب خمس دول هى: إنجلترا، وفرنسا، وأسبانيا، وإيطاليا، وألمانيا.

وكانت لإنجلترا التى تحتل منطقة جبل طارق منذ ١٧٠٤ مصالح حيوية فى

(١) عبد المجيد بن جلون: هذه مواكش (القاهرة ١٩٤٩) ص ٤٩.

الأقاليم المواجهة لجبل طارق - هذا بالإضافة إلى مصالح إنجلترا الأخرى فى البحر المتوسط والدول المطلة عليه خاصة بعد احتلالها لمصر عام ١٨٨٢[١].

وكانت لفرنسا مصالح بحكم وجودها فى الجزائر وتونس، وقد حدث صدام بين الفرنسيين والمغاربة بسبب معاونة المغرب للأمير عبد القادر الجزائرى الثائر ضد فرنسا فى الجزائر فزحفت القوات الفرنسية على الحدود الشرقية للمغرب وهزمت الجيش المغربى فى (معركة أسلى) ١٨٤٤ لكن عقدت (اتفاقية طنجة) ١٨٤٤ بين الطرفين تعهدت بموجبها المغرب بتسريح قواتها الموجودة على الحدود الجزائرية وعدم تقديم المساعدة للأمير عبد القادر.

أما ألمانيا - فكانت قد اكتملت وحدتها أخيراً وكانت تتطلع لمركز خاص فى المغرب وكانت إيطاليا أيضاً تنظر بعين الحقد إلى فرنسا التى سبقتها فى وضع يدها على الجزائر وتونس وكانت ترى أن حصولها على المغرب هو التعويض الوحيد عن هذه الخسارة.

وكانت أسبانيا - تدرك كل هذه المصالح المتضاربة، وكانت تعلم أن تحقيق مصالحها فى المغرب يتوقف على مدى نجاحها فى التوفيق بين مصالحها ومصالح هذه الدول الاستعمارية.

وقد اتجهت أسبانيا للاتفاق مع فرنسا ليمكنها أن تحقق أطماعها فى المغرب - ووصلت الدولتان إلى اتفاق أولى فى عام ١٩٠٢.

على أن فرنسا نفسها كانت تسعى للوصول إلى اتفاق ليمكن أن تحقق هى الأخرى أطماعها فى المغرب.

وقد مرت التسويات بين الدول المتنافسة على المغرب فى مراحل:

١ - ففى عام ١٩٠٤ وصلت فرنسا وإنجلترا لاتفاق (الاتفاق الودى) وبموجبه تقرر أن تطلق فرنسا يد إنجلترا فى مصر فلا تطالبها بتحديد موعد لإنهاء احتلالها لمصر فى مقابل ترك إنجلترا يد فرنسا فى المغرب.

---

(١) حسن صبحى: التنافس الاستعمارى الأوروبى فى المغرب (القاهرة ١٩٦٥) ص ١٤٩.

٢ ـ على أن الحكومة المغربية استناداً لتأييد ألمانيا لها دعت ١٩٠٦ لعقد مؤتمرا دوليا للنظر فى شئون المغرب، وعارضت فرنسا فى ذلك لكن عقد **المؤتمر فى مدينة (الجزيرة الخضراء)** الأسبانية فى يناير ١٩٠٦ وحضره مندوبو ١٢ دولة ورغم أن الدول اتفقت فى المؤتمر على احترام استقلال المغرب ـ لكن بنود الاتفاقية الأخرى كانت نصراً لفرنسا وأسبانيا وللدبلوماسية الإنجليزية.

فلم يمض على توقيع (ميثاق الجزيرة الخضراء) عام واحد حتى كانت فرنسا قد احتلت (وجدة) على الحدود الجزائرية المغربية وأسرعت أسبانيا لاحتلال مناطق هامة فى الريف وتطورت الأحداث فاحتلت فرنسا (الرباط) ثم فاس[١].

٣ـ وأثارت هذه الأحداث ألمانيا فأرسلت فى عام ١٩١١ إحدى سفنها الحربية إلى ميناء (أغادير) المغربى على المحيط الأطلسى فى شبه مظاهرة عسكرية ـ لكن فرنسا وصلت إلى اتفاق مع ألمانيا تركت فرنسا لها بموجبه رقعة من أملاكها فى الكاميرون مقابل ترك الحرية لفرنسا فى المغرب.

٤ـ واتفقت فرنسا مع إيطاليا على أن تترك يد إيطاليا حرة فى ليبيا مقابل ترك الأمر لفرنسا فى المغرب.

وبذلك لم تجد فرنسا عقبة فى إلزام السلطان عبد الحفيظ سلطان المغرب على أن يوقع فى مارس ١٩١٢ على (إعلان الحماية).

وجرت مفاوضات بين أسبانيا وفرنسا انتهت بتحديد المنطقة التى وضعت تحت النفوذ الأسبانى وأطلق عليها اسم **(المنطقة الخليفية)** ويطلق عليها الأسبان اسم (الريف الأسبانى) لكن وجدت أسبانيا مقاومة عنيفة من الأمير عبد الكريم الخطابى حين حاولوا تثبيت أقدامهم فى المنطقة لهم من المغرب.

سياسة أسبانيا فى حكم منطقة نفوذها فى المغرب:

ميزت أسبانيا بين المناطق السابق احتلالها (مليلة، سبته، إفنى، منطقة

(١) Cambon,, H.: Histoire du Maroc (Paris 1953) P. 69.

الصحراء الغربية) واعتبرتها أرضاً أسبانية تخضع لحكومة مدريد مباشرة ـ وبين المناطق الأخرى التى تستمد أسبانيا نفوذها فيها من معاهدة الحماية بين فرنسا والسلطان المغربى.

واتخذت أسبانيا مدينة (تطوان) مركزاً لإدارتها للمنطقة الجديدة التى آلت إليها، وعينت مندوباً سامياً أسبانياً لإدارتها - وقد عرفت (بالمنطقة الخليفية) كما ذكرنا لأن السلطان يعين واحداً من أعضاء أسرته لرعاية شئون المواطنين بها ـ وكانت لأسبانيا بهذه المنطقة وزارات لمختلف الشئون.

وقد شجعت أسبانيا هجرة الأسبانيين للمنطقة التى خضعت لهم فى المغرب.

الأمير محمد عبد الكريم الخطابى والمقاومة الوطنية للمستعمرين الأسبان فى المغرب

اقترنت المقاومة الوطنية فى المغرب العربى بوجه عام، وإقليم الريف الأسبانى بشكل خاص بتلك الانتصارات الرائعة التى سجلها الزعيم المغربى محمد عبد الكريم الخطابى الذى سجل بحروف من نور صفحات كلها عز وفخار لكل مسلم يريد أن يقرأ عن هذه البطولات العربية ضد قوتين أوروبيتين هما أسبانيا وفرنسا، وكانت مقاومته عاملاً قوياً فى هز كيان الاستعمار الفرنسى فى شمال أفريقيا، بل وأثر على كل النظم الاستعمارية هناك.

ولد الأمير عبد الكريم الخطابى (الوالد) فى منطقة الريف[1] فى الوقت الذى

(١) كلمة ريف ليس لها المعنى الشائع فى الشرق العربى والذى يعنى المناطق الزراعية، ولكنها تعنى فى المغرب طرف الشىء أو نطاقه الخارجى، وهى تعنى الساحل الشمالى، وصارت تطلق على المنطقة المحيطة بسبته غرباً حتى حدود الجزائر شرقاً، وطبقاً لهذا التحديد فإن بلاد الريف تمتد بمحاذاة البحر على مسافة طولها ١٢٠ ميلاً وعرضها ٢٥ ميلاً، وتقطن هذه المنطقة قبائل الجبالا ذات الأصل البربرى، إلى جانب سكان المدن العرب الذين اختلطوا بالبربر، ومن القبائل البربرية التى تسكن الريف قبيلة ورياغل التى ينتسب إليها الزعيم محمد عبد الكريم الخطابى.
- انظر صلاح العقاد: المغرب العربى، القاهرة ١٩٦٩، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

تطلعت فيه الدول الأوروبية نحو استعمار شمال أفريقيا. وكانت قبيلة ورياغل التى تقطن إقليم الريف من أشهر القبائل هناك، وكان الأمير عبد الكريم رئيس القبيلة الحاكمة فى الريف على علاقة بالعالم الأوروبى، ولما أعلن الأسبان الحماية عام ١٩١٢ على المنطقة التى خصصت لهم حسب اتفاقهم مع الفرنسيين وقف الأمير وأعلن رفضه لهذه الحماية.

فما كان من المندوب السامى إلا أن أصدر أوامره بالقبض على ابنه وإلقائه فى السجن[١].

انتظر الشيخ لحين عودة ابنه الأكبر من السجن، وعودة ابنه الثانى محمد من مدريد وأعلن القطيعة بينه وبين الأسبان، وصمم على مقاومة الأسبان وإخراجهم من بلاده ودارت معارك طاحنة بين الأسبان والوطنيين المغاربة أبرزها معركة أنوال التى أحرز فيها الوطنيون المغاربة انتصاراً ساحقاً على الأسبان.

معركة أنوال يوليو (١٩٢١):

قبل دراسة هذه المعركة التاريخية الحاسمة يجدر بنا أن نلقى نظرة على الوضع الأسبانى فى المغرب، ثم وضع الريف وأحداث هذه المعركة الهامة وأهم ما ترتب عليها من أحداث.

حاولت أسبانيا استخدام القوة لإخضاع الريف فى الوقت الذى كانت فيه أسبانيا أكثر تخلفاً من فرنسا فى المجال العسكرى، وكان الجنود الأسبان يفتقرون إلى التدريب الحديث، وكانت القوات الأسبانية فى المغرب تنقسم إلى ثلاث قيادات الأولى فى (مليله) فى الشرق، والثانية فى (سبته) أمام المضايق، والثالثة فى (العرائش) على المحيط الأطلسى.

بدأ الأسبان عملياتهم الحربية من قواعدهم الثلاث فى سبتمبر ١٩٠٩ واحتلوا طنجة عام ١٩١١، ولم يتوغلوا فى بلاد الريف لأنها صعبة المسالك

(١) جلال يحيى: المغرب العربى الحديث والمعاصر، الإسكندرية ١٩٨٢، ص ١١٤.

وفكر الأسبان فى طريقة لاستمالة الزعماء المحليين، وبخصوصاً **أحمد الريسولى** الذى رفض التعاون معهم، وهاجم الأسبان شفشاون[١].

وفى عام ١٩٢٠ حاول الأسبان تطويق منطقة الجبالا، وهاجموا الريسولى، وأعطاه القائد الأسبانى مهلة للاستسلام ولكن تغير الموقف بسبب هزيمة الأسبان على أيدى قبائل ورياغل فى قطاع مليلة بقيادة الزعيم محمد عبد الكريم الخطابى.

وكان الجنرال سيلفستر قد تقدم إلى نهر القرط، واحتل دار دريوس فى مايو ١٩٢٠، ولم يلق مقاومة من قبائل، ورياغل حتى وصل إلى أطراف **أنوال** فى مايو ١٩٢١ فأرسل إليه الأمير الخطابى يحذره من احتلال الإقليم.

واضطر **الجنرال سيلفستر** إلى تركيز قواته فى أنوال خصوصاً أنه فشل فى الحصول على دعم من القيادات الأخرى، وحصن أهل الريف المكان وردوا الأسبان القادمين للموقع فى أنوال، وعندئذ حاول سيلفستر إنقاذ الموقف، وقرر الانسحاب، بعد أن أحس بالتهديد لقواته المطوقة فى أنوال، وفقد القائد الأسبانى السيطرة على الموقف، ووقعت الكارثة فى الثانى والعشرين من يوليه عام ١٩٢١ حيث حلت الهزيمة الساحقة بالقوات الأسبانية، ولقى القائد الأسبانى نفسه حتفه فى هذه المعركة.

وهرب الأسبان فى ذعر وخوف بعد أن واصل رجال الريف مهاجمة القوات المنسحبة وفى ٢٥ يوليه استولى أهل الريف على كل مواقع الإقليم، وامتدوا حتى أسوار مليلة ذاتها والتى وصل إليها الجنرال الأسبانى بيرنجر فى ٢٣ يوليه - ولكنه فشل فى إنقاذ الموقف المتدهور، وظل هذا القائد محاصراً حتى التاسع من أغسطس، وسلم للوطنيين الذين أرسلوه للأمير الخطابى.

---

(١) كان أحمد الريسولى قد درس القانون فى شبابه، لكنه استسلم لحياة المغامرات، وصار يسرق الماشية، ثم يردها لأصحابها مقابل دية تدفع له. وقد قويت شوكته بين قبائل الجبالا ولذا عينه السلطان عبد الحفيظ باشا على قبائل جبالا. ولما بدأ الاحتلال الأسبانى لبلاده، كان من الطبيعى أن يصطدم بقوة الريسولى. وتقدمت القوات الأسبانية إلى تطوان واحتلتها عام ١٩١٣، وقام الريسولى بمهاجمتهم، وأرسلت أسبانيا تعزيزات للمنطقة، واضطرت أسبانيا لمهادنته وعقدت معه صلحا اعترفت فيه بحكمه فى منطقة الجبالا لتتفرغ لمواجهة محمد عبد الكريم الخطابى.

ورغم أن الجيش الأسبانى كان يفوق الجيش المغربى فى الريف عدداً وعتاداً، فقد نجح الريفيون فى **تحرير معظم المنطقة** التى كان الأسبان قد استولوا عليها فى عام ١٩١٢ وظل حزام المدن الساحلية فقط تحت السيطرة الأسبانية.

وكانت حروب الأمير الخطابى من أغرب الحروب فى التاريخ حيث لم تكن حرباً بين جيشين متساويين، كما لم تكن حرباً بين بلدين، بل إنها كان نضالاً بين دولة أوروبية قوية، وبين زعيم قبلى ليس لديه من الموارد سوى ما تدره عليه المنطقة المحددة التى كان يسيطر عليها، ولم يكن رجاله مدربين على فنون الحرب الحديثة وكان يقودهم زعيم لم يدخل يوماً من الأيام باب مدرسة حربية[١].

وكانت هزيمة الأسبان قاسية حيث قضت على جيش سيلفستر وخسر الأسبان ١٤٧٧٢ رجلاً، ٥٩,٥٠٤ بندقية، ٣٩٢ مدفعا رشاشاً، ١٢٩ مدفع ميدان بالإضافة إلى حوالى ٧٥٠ أسيرا [٢].

لقد كانت كارثة أنوال هزة عنيفة فى تاريخ أسبانيا الحديث.

ما هى العوامل التى ساعدت الأمير الخطابى على تحقيق هذا النصر على الأسبان؟

١ـ لقد استعان الأمير الخطابى بالأسلحة الحديثة التى حصل عليها من الأوربيين.

٢ـ كما حصل على الأموال اللازمة من الأسرى الذين كان يطلق سراحهم مقابل المال والسلاح.

٣ـ يضاف إلى كل ذلك طبيعة المنطقة الجبلية، ووعورة مسالكها.

٤ـ عدم تنسيق القيادات الأسبانية لخططها أو الإتفاق على خطة واحدة، وقيام الجنرال سيلفستر بالهجوم من مليلة على مناطق الريف دون إستشارة القائد العام للقوات الأسبانية فى المغرب.

(١) Walter, Harris: France, Spain and the Rif, London 1927. pp. 332.

(٢) جلال يحيى: مرجع سابق، ص ١٢٢.

٥ـ وفى تقرير **لجنة التحقيق بمدريد** إشارة إلى أن إقامة المراكز دون الإهتمام بتحصينها تحصيناً قوياً، وتعبيد الطرق التى تربط بينها كان من أهم أسباب الهزيمة.

٦ـ كما أشار التقرير أيضاً إلى أن فساد الضباط وتغيبهم فى المدن وترك الحاميات كان أيضاً من أسباب الهزيمة[١].

تطورات القتال بعد معركة أنوال:

كان فى وسع الأمير الخطابى أن ينهى الحرب لو أنزل قواته وقضى على القوة الأسبانية فى مليلة ـ لكن إفتقار أهل الريف لوسائل الدفاع البحرى جعلت الأمير يُحجم عن الإطباق على مدينة مليلة.

واختلفت التفسيرات حول عدم الإقدام على احتلال مدينة مليلة المحاصرة والقضاء على القوة الأسبانية بها، ولعل أهم التفسيرات هو أن الأمير أدرك أن قواته فى حاجة إلى إعادة تنظيم، وأنه خشى من تفكير الأسبان فى الإنتقام فى وقت لم يكن هو فيه على استعداد لتوسيع عمليات القتال، بالإضافة إلى خوفه من إحداث نوع من العداء الاوروبى ضده، وخصوصاً من جانب بريطانيا التى كان يطمع فى الحصول على تأييدها لتحقيق إستقلال الريف. وكان الأمير يعتقد أن الأسبان سوف يسعون إليه لعرض شروط الصلح بالطريقة التى يفرضونها بعد هزيمتهم فى أنوال.

وعلى العموم فإن عدم الإقدام كان غلطة كبرى فى إستراتيجية الأمير الحربية ولو أحسن إستغلالها لأستطاع القضاء على بقية القوة الأسبانية فى المدينة، ولكن والأمر كذلك فقد أعطى هذه الفرصة للأسبان لكى يُعيدوا تنظيم قواتهم، واستمرار الحرب مع الأمير، فقد دعم الأسبان قواتهم ووصلت إليهم الإمدادات، وبدأ الجنرال الأسبانى دعم الصفوف حيث وصلت القوات الأسبانية فى المغرب ١٥٠,٠٠٠ مقاتل[٢].

---

(١) صلاح العقاد: مرجع سابق، ص٢٨٤.

(٢) كريم خليل ثابت: عبدالكريم والحروب الريفية، القاهرة ١٩٢٥، ص٣٢.

وأعتمدت خطة الأسبان فى المرحلة التالية لمعركة أنوال على التفاوض مع الريسولى حتى يركزوا قواتهم ضد الأمير الخطابى.

وفى ٢٨ سبتمبر ١٩٢٢ تم **الإتفاق مع الريسولى** الذى قرر الإستسلام للأسبان مقابل تركه سيد الموقف فى منطقته وجلاء الأسبان عن تازاروت، ودفعوا للريسولى تعويضاً عن الأضرار التى لحقت به.

وإستطاع الأمير الخطابى بسط نفوذه على كل الريف وغمارة واتحدت المنطقة تحت حكومة موحدة، وصارت (**أجدير**) عاصمة لتلك الدولة الجديدة، وأخذت أسبانيا تسعى للتفاوض مع الأمير فى يناير ١٩٢٣، وإخلاء سبيل الأسرى مقابل أربعة ملايين أسبانية. وعرضت أسبانيا على الأمير حكم منطقة الحماية الأسبانية التى حصلوا عليها فى اتفاقهم مع الفرنسيين لكن الأمير رفض ذلك وفشلت المفاوضات بين الإسبان والأمير، وواصل أهل الريف الضغط على الأسبان وتمكن رجال القبائل مع قطع الطرق بين تطوان وشفشاون، وحاصروا قوة من الأسبان قوامها ثلاثة آلاف جندى، وهاجموا الأسبان فى مقرهم فى تطوان التى اتخذها عاصمة لمنطقة الحكم فى المغرب.

وكان الأمير قد قرر فى صيف ١٩٢٤ القيام بهجوم عام، وكانت تطوان أول الأهداف فى هذا الهجوم، ونجحت قواته فعلاً فى الوصول إلى ضواحى المدينة، وسقطت قنابل مدفعيتها فى الشوارع - لكنها عجزت عن اجتياح أسوارها، واضطر **بريمودى ريفييرا** إلى ترك العاصمة الأسبانية والحضور إلى المغرب للإشراف بنفسه على القتال، وكانت مهمة صعبة جداً [١].

ونجح الأسبان فى فك حصار شفشاون بعد معارك استمرت عشرة أيام وعينت أسبانيا الماركيز (دى إستيلا) مندوباً ساميا وقائداً عاماً بالمغرب وبدأ هذا القائد فى سحب القوات الأسبانية فى الوقت الذى استولت فيه قوات الريف على (القصر الصغير)، وقد كلفت هذه العملية أسبانيا حوالى ٢١,٢٥٠ ما بين قتيل ومفقود وأسير من الجنود والضباط.

(١) صلاح العقاد: مرجع سابق، ص ٢٨٦.

وحاول الأسبان إعادة فتح الطريق بين طنجة وتطوان، واحتلوا القصر الصغير فى يناير ١٩٢٥ وكان الأمير الخطابى يواصل تدعيم سلطته الثورية فى منطقة جبالا، ونجح فى القبض على الريسولى، ونقله إلى أجدير حيث مات هناك، وبعد موته صار عبدالكريم رئيساً وزعيماً وقائداً للثورة دون منافس.

حكومة عبدالكريم الخطابى فى مناطق نفوذه

ورفض الأمير لقب سلطان، وفضل لقب أمير الريف، كما رفض إنشاء بلاط، وظل يعيش فى منازل ريفية، وجعل أخاه قائداً للجيش النظامى، وأعد جيشاً مجهزاً بأحدث الأسلحة الأوروبية ووضع نظاماً لجباية الضرائب، كما وضع قوانين جديدة، وقرر تأليف حكومة وطنية تدير شؤون البلاد (جمعية وطنية)، وأعلن الميثاق الذى تضمن الإعتراف بالإستقلال التام للدولة الريفية من خطوط الحدود مع مراكش حتى البحر المتوسط، وأعلن قيام الجمهورية بالريف، ودعى جميع الدول إلى إقامة خدمة قنصلية ودبلوماسية فى مقر حكومة الريف فى أجدير[١].

وأعلن الخطابى عن أهداف حكومته فى عدم الإعتراف بالحماية الفرنسية وجلاء الأسبان عن كل ما احتلوه عدا سبته ومليلة، وإقامة علاقات طيبة مع كل الدول.

وفى مايو من نفس العام (١٩٢٤) بدأت أسبانيا تسعى للوصول إلى هدنة مع الأمير على أساس بقاء القوات الأسبانية فى أماكنها التى أحتلها ولكن فشلت المفاوضات بسبب اشتراك كل من الأسبان والفرنسيين فى حرب الأمير.

فرنسا والصراع مع الأمير الخطابى:

فى بداية ثورة الأمير عبدالكريم ضد الأسبان رحب الفرنسيون ووجدوا فيه فرصة للانتقام من أسبانيا لموقفها أثناء الحرب العالمية الأولى مع ألمانيا والعناصر

(١) أنظر إعلان حكومة الريف فى إبراهيم سحاته حسن: نصوص ووثائق فى تاريخ المغرب تحت حكم الحماية، إسكندرية ١٩٨٢، ص٢٣٨.

الثورية المعادية لفرنسا والتى اتخذت من المنطقة الأسبانية قاعدة للعمل، وأعطت فرنسا الأمير الأسلحة والذخيرة بصورة علنية إنتقاماً من موقف الأسبان خلال الحرب، وكان وفد الريف يتنقل بسهولة وحرية بين المنطقة الفرنسية وبين الجزائر والريف، وكان هذا الموقف الفرنسى أكثر من مجرد الانتقام من الإسبان[١].

وكان اعتقاد الفرنسيين أن ظروف ما بعد الحرب العالمية الأولى سوف تسمح لهم بالمطالبة بتعديلات فى المنطقة، وكانوا يأملون فى أن سيطرة عبدالكريم على الريف تساعدهم للحصول على امتيازات فى البحث عن المعادن فى الريف لكن فى عام ١٩٤٢ تغير الموقف الفرنسى تماماً من الأمير عبدالكريم الخطابى.

ولعل أسباب التغير فى السياسة الفرنسية إنما يعود إلى ما يلى:

أولاً: كان المقيم العام الفرنسى (Lauty) يعتقد أن ثورة عبدالكريم مجرد اضطراب لإحراج موقف أسبانيا، ثم يحصل بعد ذلك على تعديلات فى حدود المنطقتين الفرنسية والأسبانية باحتلال وادى ورغة على الأقل ـ لكن خيبت ثورة الريف ظنون الفرنسيين، وأثبت الخطابى أنه قائد عسكرى وزعيم سياسى نجح فى خلق دولة حديثة وأوجد نظاماً إدارياً ومالياً، وصار بطل الريف بطلاً للتحرير فى نظر مسلمى شمال أفريقيا، ولقد كشف ليوتى عن وجهة نظره لأحد كبار أعوان عبدالكريم بقوله «إننى أحب الريفيين كما هم ولكنى لا أريد أن يصبحوا كباراً»[٢].

ثانياً: كانت عملية البحث عن المعادن من أبرز الدوافع التى غيرت موقف فرنسا لأن منطقة الريف كانت فى نظر الأوربيين منطقة غنية بالمعادن.

من هنا بدأ **يتغير موقف الفرنسيين** فجأة، وأغلق ليوتى الحدود مع الريف، وضبط قوافل التموين وهى فى طريقها إليه وقرر مهاجمة الريف رغم عدم

(١) محمد خير فارس: تنظيم الحماية الأسبانية في المغرب، دمشق ١٩٧٢، ص١١٠.

(٢) Fontaine, P.: Abdel Kerim, Paris 1958, P.61.

وجود حجة لذلك، ومن الطبيعى بعد إنتصارات الأمير عبدالكريم ضد الأسبان وتكبيده لـهم الخسائر الفادحة، وإنشـاء جمهورية الريف أن يعكـر هذا التطور صفو الحـياة عند الفـرنسيين الـذين اقتسـموا المنطقـة مع الأسبان فكـانت هذه العوامل سبباً فى **تحالف فرنسا وأسبانيا ضد الأمير.**

وتقدم الـفرنسيون فـى مايو عام ١٩٢٤ وعـبروا أعالى نهـر الورغة دون أن يلقوا مقاومة عنيفة من سكان الريف.

وأمضى ليـوتى شتاء عام ١٩٢٥ يعد الخطـط لسحق عبدالكـريم الذى بادر بالهجوم فى منتصف أبريل ١٩٢٥ واندفع كالصاعقة ونجح فى احتلال خمسين مركزاً فرنسياً، وصار على بعد سبعة وعشرين كيلو متراً من مدينة فاس[١].

والسؤال الآن: لماذا أقدم الأمير على حرب فرنسا رغم أنه كان يدرك صعوبة تحديهم؟

إن تمسك الأمير بالتقاليد الريفية، واحترام هـذه التقاليد كـان من أسباب الاحتكاك معهم، وذلك عندما استنجـدت قبيلة (بنى زروال) التى تقطن إحدى المقاطعات جنـوب الريف، رغم ما يترتب على ذلك من عـواقب وخيمة وقال الأمـير نـفسـه لمستشـارية، «لـسـوف أرتكـب حمـاقة لـكن لابـد لى مـن ارتـكابـهـا»[٢]ويحاول المؤرخـون الفرنسيون تحمـيل الأمير الخطابى مـسؤولية الاشتبـاك معهم حيث يـدعون أن مبعوثى الـريف قد تسللـوا إلى وادى ورغة وحرضوا القبائل هناك على العصيان على الفرنسيين[٣].

ولقد كان هجـوم الأمير عبدالكريم علـى الفرنسيين سببـاً فى تحرج موقف ليوتـى الذى طلب إمـدادات من فرنسـا لكنهـا لم تصلـه فى الوقت المـناسب وهبطت أرصدة ليوتى السياسية وزاد خصـومة وإنهالت الهجمات عليه من كل صوب، وبدأ المـستوطنون الفـرنسيون يرسلـون برقيات ينـتقدون فيها سـياسة

(١) محمد خير فارس: مرجع سابق. ص١١٤.
(٢) فوريو روبرت: عبدالكريم أمير الريف، ترجمة فؤاد أيوب (دمشق بدون تاريخ) ص ١٤٣.
(٣) صلاح العقاد: مرجع سابق. ص ٢٨٦.

ليوتى، ويطالبون بإرسال قائد عسكرى قوى مع نجدة قوية، والإنتقال من الدفاع للهجوم[١].

وزاد الأمر سوءاً عندما تقدمت القوات الفرنسية شمالاً على أمل اللقاء بالقوات الأسبانية ـ لكن قيادة الأسبان كانت قد اتخذت قراراً بالإنسحاب ووجدت القوات الفرنسية نفسها وجهاً لوجه أمام ثوار الريف.

وتمكنت قوات الريف من إذاقة الفرنسيين مرارة الهزيمة فى أكثر من لقاء، وصارت الجبهة الشمالية للقوات الفرنسية مكشوفة، ولذا قرر الفرنسيون إنشاء خط دفاعى ثابت للدفاع عن منطقتهم من هجوم أبناء الريف.

وفى نوفمبر ١٩٢٤ أبرق المقيم العام الفرنسى فى المغرب إلى الحكومة الفرنسية بأن المناطق الواقعة تحت السيطرة الأسبانية والمتاخمة للمنطقة الفرنسية أصبحت مراكز عصيان، وأن أهلها صاروا خاضعين لزعيم واحد يُخلصون له كل الأخلاص، وأن نجاح هذا الزعيم قد شجع القبائل الأخرى على الإنضمام إليه، وفى برقية أخرى لاحقة أشار ليوتى إلى أن عبدالكريم لا يخفى أطماعه فى مهاجمة المنطقة الفرنسية وتحرير المغرب كله[٢].

وبناءً على هذه التقارير أقرت الحكومة الفرنسية مخطط ليوتى للحملة ضد الريف، وكان ليوتى بارعاً حيث أدرك أن هذه الثورة ليست ثورة قبائل بل هى بدء ظهور دولة مغربية موحدة، ولذا إستغل المنافسات الشخصية للإيقاع بين زعماء الثورة المغربية ولإحداث الفرقة فى صفوف الثوار ـ لكن نجاح عبدالكريم وقضائه على خصمه الريسولى جعل القبائل المترددة تنضم إليه، وفشلت دبلوماسية ليوتى فى الإيقاع بين الزعماء فى منطقة الريف[٣].

لقد أدركت فرنسا أن نجاح ثورة الريف بقيادة الأمير عبدالكريم الخطابى تعنى ضياع كل المغرب الأقصى والجزائر وتونس، ومن هنا جاء التفكير فى إرسال الجنرال (بيتان) إلى المغرب فى يوليه ١٩٢٥، وحدث إجتماع بين

(١) General Catroux: Lyautey le Marocain (paris 1952),P.63.

(٢) Catroux: Ibid, P.164,

(٣) روم لاندو: تاريخ المغرب في القرن العشرين، ترجمة نقولا زيادة، بيروت ١٩٦٣، ص١٥٣.

الجنرالين ليوتى وبيتان والمارشال الأسبانى بريمودى دى ريفيرا لوضع إمكانياتهم معاً، وللتخطيط سوياً من أجل إخضاع الزعيم المغربى[١].

وقد نص الإتفاق الفرنسى الأسبانى على ما يلى:

١ـ ألا تعقد الدولتان أى صلح منفرد مع قبائل الريف.

٢ـ تتفق الحكومتان على أن تحقق لقبائل الريف الاستقلال الذاتى طبقاً للمعاهدات الدولية، وتحت سلطة رئيس تختاره هذه القبائل.

٣ـ أن تتضمن المقترحات التى ستعرض على القبائل عملية قبول الاحتلال الأسبانى السلمى لقطاع معين وتبادل الأسرى.

٤ـ استمرار الأعمال العسكرية حتى تنتهى المفاوضات إلى نتيجة.

٥ـ فى حالة فشل المفاوضات تعلن الدولتان مقترحاتهما ويحملان الأمير محمد عبدالكريم الخطابى مسؤولية إستمرار النزاع[٢].

وواضح من هذا الإتفاق أن الدولتين قد تجاهلتا تماماً الأمير ولهذا عندما عينت الحكومتان مندوبيهما رفض عبدالكريم استقبالهما ما لم تقبل الحكومتان الإعتراف باستقلال الريف.

القتال بين القوات الفرنسية وقوات الأمير محمد عبدالكريم الخطابى:

كان عدد القوات الفرنسية فى المغرب فى عام ١٩٢٤ حوالى ٦٥,٠٠٠ جندى فى الوقت الذى بلغت فيه قوات المجاهدين حوالى ٦٠,٠٠٠ رجل، واعتمد الأمير عبدالكريم على خطة خاصة تتلخص فى إرسال عدد من المتطوعين إلى ما وراء خطوط العدو لإثارة القبائل، وكان زحف الجيش تحت هذه الستارة من القبائل يسمح بحمايته فى حالة تقهقره، وبالفعل وجد القائد الفرنسى أنه أمام جيش يضم سلاح مشاة ممتاز ويمكنه أن يقف نداً لأى جيش فى العالم.

---

(١) جلال يحيى: مرجع سابق، ص ١٤٥.

(٢) Gabrielli,L.: Abdel Kerim et les developments du Rif (Casablanca,1953),P.120

وفى ١٣ أبريل ١٩٢٥ بدأ رجال الريف الهجوم على القوات المعادية وتوغلوا فى الخطوط الفرنسية، وأثاروا القبائل خلفهم واضطرت القيادة إلى إخلاء المواقع التى انقطعت صلتها بقواعدها الأصلية، وتأزم الموقف فى منطقة (تازا) التى أخلاها الفرنسيون بعد معركة عنيفة مع رجال الريف.

هزت هزيمة الفرنسيين فى تازا الرأى العام الفرنسى بشكل أجبر الحكومة على تغيير قيادتها، فعين القائد تاولان قائداً عاماً للقوات الفرنسية فى المغرب. وكانت الهزيمة قاسية على الفرنسيين، وكانت فرصة لكى يشن الحزب الشيوعى الفرنسى هجومه على البورجوازية الإستعمارية ويظهر تأييده لقضية الريف وردت الحكومة الفرنسية على ذلك بأن أعلنت أمام مجلس الأمة أن سياستها سلمية ودفاعية. ولقد أخطأ الأمير عبدالكريم حينما ضيع الفرصة **ولم يستولِ على فاس وتازة** قبل أن تصل التعزيزات للقوات الفرنسية بهما.

إزاء كل هذا كان على فرنسا أن تتعاون مع أسبانيا للقضاء على هذه الثورة الريفية التى صارت تهدد الكيان الفرنسى والأسبانى فى شمال القارة، وأرسل الأمير عبدالكريم إلى الأسبان فى تطوان يصر على ضرورة الاعتراف باستقلال الريف كشرط أساسى للدخول فى مفاوضات للصلح ـ لكن الدولتين (فرنسا وأسبانيا) أعلنتا شروط الاتفاق، وأقرتا عدم الاعتراف بإعطاء الاستقلال للريف[١].

وهكذا أصبح واضحاً أن طريق التفاهم مع الأمير قد أوصد وأن السلاح هو الفيصل الوحيد لتقرير مصير هذه المنطقة.

وبدأ الفرنسيون بضرب القطاع الخاص بوادى نهر الورغة بالمدفعية الثقيلة فى العاشر من سبتمبر ١٩٢٥، ثم أخذت القوات الفرنسية تتقدم بشكل

---

(١) من شروط الإتفاق قبول الأمير لمبدأ الحماية والإعتراف بسلطان المغرب، ومغادرة الأمير الخطابى البلاد وأخيراً تجريد قبائل الريف من السلاح. وقد ضرب الخطابى المثل الرائع فى إنكار الذات بقبول هذه الشروط كأساس للتفاوض وعلي أمل أن يحفظ لأهل الريف قدراً من الإستقلال الذاتى.
صلاح العقاد: مرجع سابق. ص ٢٩١.
ـ وأيضاً محمد خير فارس: مرجع سابق. ص١٢٥.

منظم، ولمسافات صغيرة حتى تتمكن من تطهير كل موقع قبل البدء فى معركة جديدة، واستمرت فرنسا فى عملياتها حتى أواخر أكتوبر، ولكنهم فشلوا فى الوصول إلى محاصرة بنو وريـاغل فى الجنوب أو إجبارهم على طلب الاستسلام.

وفى الثانى من أكتوبر عام ١٩٢٥ بدأت القوات الفرنسية تتوغل فى سهل أجدير فى الوقت الذى كان مجاهدو الريف يهددون تطوان نفسها. وكانت خطة فرنسا سرعة التوغل والالتقاء بالقوات الأسبانية القادمة من مليلة وأجدير.

واضطر الأمير عبدالكريم إلى نقل عاصمته ومقر قيادته إلى الداخل فى الجنوب الغربى من تارجست، واستطاع الأمير تحطيم خط الدفاع الفرنسى عند الورغة ووصل إلى أبواب تازا، ولكنه فشل فى الدخول إلى فاس فى الوقت الذى فشل فيه الفرنسيون والأسبان فى القضاء على جيش الأمير، وفشلوا أيضاً فى إغراء القبائل للخروج على طاعته.

من هنا يتضح أن الموقف الحربى لم يحسم المعارك لأى من الطرفين، وأن الصراع طويل ومستمر وصعب، وأنه ليس من السهل القضاء على هذه المقاومة الإسلامية فى جمهورية الريف كما توهم الفرنسيون والأسبان.

ولقد استطاع هذا الأمير المسلم الذى يجاهد فى سبيل الله والوطن ـ أثناء العمليات ـ أن يستولى على تسعة مواقع فرنسية، مع إجبارهم على إخلاء اثنين وثلاثين موقعاً وتكبيد الفرنسين الخسائر الفادحة فى أشرس حرب يواجهونها فى شمال أفريقيا.

واضطرت فرنسا أمام هذه المقاومة المغربية العنيفة أن تطلب الإمدادات بين الحين والحين وأن تغير القيادات، وأن تُعيد تشكيل القوات لمواجهة هذا العدو القوى العتيد.

ووصلت القوات الفرنسية فى المغرب فى أكتوبر عام ١٩٢٥ حوالى ١٥٨,٠٠٠ جندى ورغم كل هذه الاستعدادات والقوات الضخمة التى فاقت جيش الأمير ـ إلا أنه استطاع أن يكبد الفرنسيين فى معارك يونية وأغسطس

وسبتمبر وأكتوبر حوالى ٨٩١ قتيلاً، ٢٩٩١ جريحاً وإلى جانب هذه الخسارة فقد كلفت حروب فرنسا مع الأمير حوالى ٩٥٠ مليون فرنك ناهيك عن ثمن المعدات التى أرسلتها فرنسا وتقدر بحوالى ٤٥٠ مليون فرنك.

ولم يكن الأمير يواجه هذه الجحافل الفرنسية فقط، بل كانت هناك القوة الأسبانية التى قُدرت بحوالى ٨٥,٠٠٠ جندى، ومع الإمدادات التى وصلت إليها بلغ عدد الجيش الأسبانى هناك ١١٨ ألف جندى، وإذا أضفنا قوات الجانبين نجد أن هناك حوالى ٣٠٠ ألف جندى أسبانى وفرنسى أمام قوات الأمير التى لم تصل إلى ستين ألف مسلم من الريف. وهذا يدل على ضخامة العبء الملقى على كاهل الأمير أمام هذه القوى الصليبية والمسلحة بأحدث أنواع السلاح الأوربى، والأساليب الحربية التى لم يكن الأمير على دراية بها.

وفى أوائل عام ١٩٢٦ قامت فرنسا بمحاولة إستدراج بعض رجال القبائل الثائرة إلى صفها مستخدمة نفس الأسلوب الذى كان الأمير يتبعه فيما وراء خطوط العدو، وفى نفس الوقت قامت قوات غير نظامية بالدخول فى أراضى الأقاليم المجاورة للحدود وأجبرتها على الدخول فى طاعة الفرنسيين[١].

وجرت محاولات للصلح بين الطرفين ولكن دون جدوى، وأخيراً استعد الطرفان لمواصلة العمليات الحربية، ووضع كل من (بيتان) والماركيز (دى إستيلا) خطة جديدة فى مدريد، وفى نفس الوقت أرسل الأمير عبدالكريم بخطاب إلى جريدة التايمز عن طريق مراسلها فى طنجة أعلن فيه استعداده للصلح ـ لكن الحكومتين الفرنسية والأسبانية أصرتا على فرض الشروط على الأمير ورجال الريف.

مؤتمر الصلح فى وجده (مايو ١٩٢٦):

ورغم هذا فقد انعقد **مؤتمر الصلح** فى الفترة من ٢٧ أبريل حتى السادس من مايو، وحدثت أزمات فى هذا المؤتمر بسبب مسألة نزع السلاح والاستقلال الذاتى، ومسألة إطلاق سراح الأسرى قبل الإنتهاء من المفاوضات، وفى

(١) جلال يحيى. مرجع سابق. ص١٦٦.

السادس من مايو أصبح واضحاً عدم الوصول إلى إتفاق وإنصرف مندوبو فرنسا وأسبانيا بعد بدء الاجتماع بربع ساعة، وسافر مندوبو الريف من وجده فى نفس المساء. وفى صباح اليوم التالى بدأ الهجوم الفرنسى الأسبانى على الريف[١].

وتقدمت القوات السفرنسية والأسبانية، واحتلت أنوال يوم ١٨ مايو ١٩٢٦ وكان لهذا التحالف الأسبانى الفرنسى أثره فى إضعاف مركز الأمير بالإضافة إلى قلة إمكانياته، وفرض الحصار البحرى عليه، وأدرك الأمير أن الاستمرار فى الحرب يعنى عمليات إنتحارية وأن نزع السلاح من الوطنيين يعنى الخراب والنهب والسلب، ولذا خاض المعركة الأخيرة مع تلك الفئة من الرجال المؤمنين التى ساندته وأزرته فى تلك الحرب الصليبية وكان عليه أن يشرف بنفسه على هذه المعارك.

وفى ٢٧ مايو ١٩٢٦ استسلم الأمير الخطابى وأخوه للقائد الفرنسى، وباستسلامه إنهارت المقاومة فى الريف[٢].

وقد فضل الأمير تسليم نفسه للفرنسيين ذلك لأن الأسبان كانوا يطالبون بمحاكمته كعاص يستحق الإعدام، أما الفرنسيون فنظروا إليه باعتباره أسير حرب ونفوه إلى إحدى مستعمراتهم النائية فى المحيط الهندى.

وبرحيل الأمير انتهت المقاومة المغربية ولم ينته عام ١٩٢٦ حتى صارت المنطقة الأسبانية من المغرب تخضع لأول مرة لحكم أجنبى حقيقى[٣].

وثبت الفرنسيون أنفسهم فى المنطقة التابعة لحمايتهم، وانعقد مؤتمر باريس بين الفرنسيين والأسبان فى الفترة بين ١٤ يونية و١٠ يولية ١٩٢٦ لتسوية المشكلات السياسية المترتبة على استسلام الأمير، وانتهى المؤتمر بتوقيع اتفاقية خاصة لتحديد خطوط الحدود بين المنطقتين على أساس اتفاقية ١٧ نوفمبر

(١) محمد خير فارس: مرجع سابق. ص١٢٥.
(٢) شوقى الجمل: مرجع سابق، ص ٣٥٧.
(٣) جلال يحيى: مرجع سابق، ص١٧٧.

١٩١٢ . واتفق فى المؤتمر على ارسال الأمير الخطابى إلى المنفى، واختاروا له جزيرة (رينون) فى المحيط الهندى كمقر له.

وفى عام ١٩٤٧ سمح للأمير عبدالكريم وأسرته بالإقامة فى فرنسا وفى ٢١ مايو من نفس العام بينما كانت الباخرة التى تقل الأمير وأسرته ترسو فى ميناء بورسعيد، هبط الأمير وطلب اللجوء السياسى فى مصر، ورحبت القاهرة به وعاش الأمير بها حتى مات فى ٦ فبراير عام ١٩٦٣ .

تقييم دور محمد عبدالكريم الخطابى:

ذكر أحد المؤرخين الأمريكيين أنه لولا استخدام الفرنسيين والأسبان للدبابات لكان فى استطاعه الأمير الخطابى أن يقاتل الفرنسيين مدة أطول ولا نهاية لها[١].

من هذا العرض لثورة الأمير محمد عبدالكريم الخطابى ضد الاستعمارين الفرنسى والأسبانى نجد أن هذه الثورة تمثل نمطاً آخرا من زعامة القبائل وقيادتها عن طريق الثورة، وطلب الإستقلال بعيداً عن الحكم الأسبانى، فهى تمثل نقطة انتقال هامة فى حياة القبائل، ولم يكن زعيم الثورة مرابطاً محلياً قائداً للجهاد، ويعد الشهداء بالجنة، بل كان زعيماً سياسياً واسع الطموح، يتطلع إلى الفكرة القومية[٢].

لقد ظهر أن إعداد محمد عبدالكريم الخطابى كان يؤهله إلى أن يلعب هذا الدور الخطير فى حياة المغرب، فهو ابن لأحد زعماء بنى ورياغل، وهو الذى تربى على الثقافة الإسلامية فى فاس، وهو الذى درس فى (مدريد) واحتك بالأسبان فى مليلة، ولهذا عندما تزعم ثورة الريف لم يكن مجرد قائد عادى، بل كان مزوداً بثقافة إسلامية واعية صقلتها تجاربه واحتكاكه مع المغاربة فى فاس، ومع الأسبان فى مليلة.

(١) Carlton, S. Conn: Caravan, (London 1962),P.317.

(٢) B erque,J.: LeMaghreb entre deux guerrs,(Paris 1962),P.173

لقد نشبت ثورة الريف دفاعاً عن استقلال الريف عن أسبانيا وهى تشبه كل الثورات التى قامت فى المغرب بسبب ما أحرزه الأمير محمد عبدالكريم الخطابى من انتصارات على الأسبان واستيلائه على كميات ضخمة من الأسلحة التى سهلت له الكثير من التفوق والانتصار.

فبعد انتصاراته الأولى لم يعد عبدالكريم مجرد زعيم ثورة فحسب، بل اتجه إلى بناء دولة تجمع بين تقاليد القبيلة، وأفكار العصر الحديث، فأسس الجمهورية، وتلقب بالأمير، ووجد مجلساً تمثيلياً، وأعلن استقلال الريف واتخذ (اجدير) عاصمة الدولته.

وقد كان لإعلان الجمهورية والإستقلال أثر فى بلبلة الأفكار وتضارب الآراء، واتهم البعض الأمير بأنه رفض الاعتراف بسلطة السلطان مولاى يوسف لأنه (أى السلطان) ليس إلا أداة فى أيدى الفرنسيين [١].

وذكر جبرييلى أيضاً فى تقريره فى التاسع من يناير عام ١٩٢٥ إلى المقيم العام عن حالة المغرب أنه يتألف من سلطان يلقب بأمير المؤمنين ورئيس جمهورية الريف، وأفاد أنه خلال مفاوضاته مع مندوب عبدالكريم، أفاده المندوب بأن الجميع فى الريف يعلمون أن فرنسا لايمكن أن تقبل بوجود سلطانين فى المغرب، ولكن يمكن إيجاد صيغة تفاهم إذا أراد الفرنسيون ذلك[٢].

ولقد حسم الأمير نفسه هذا الأمر عندما أخبر جبرييلى «إن الشئ الذى يهمنا اليوم ليس وجود سلطان فى المغرب، ولكن الاستقلال التام، وإننى لا أتطلع إلى السلطنة ولا إلى السلطة المطلقة وإذا كنت عقبة فأنا مستعد للانسحاب لأترك المكان لغيرى»[٣].

ولم يعرف عن ابن عبدالكريم تلقبه بغير لقب الأمير كلقب سياسى، وأنكر

(١) Gabrielli, L.: Abdel Kerim et les Evenments du Rifp. 30.

(٢) Ibid. P. 57.

(٣) Ibid:P.89.

على نفسه أن يكون فكره السياسى قد قصد به الجمهورية القبلية كتعبير الجمهورية السياسية[١].

وفى الحقيقة إن عبدالكريم نفسه لم يحدد المدى الذى ستذهب إليه الأحداث، فقد انتقل فجأة وبسرعة لم يكن يتوقعها من بطل محلى إلى بطل مغربى، إلى بطل الإسلام كله.

لقد كتب عنه **شكيب أرسلان** «إننا لا نبالغ إذا قلنا أن الأمير عبدالكريم الخطابى بطل الإسلام وأسده الضرغام، والعلم المفرد الذى سار بذكره القاصى والدانى والخاص والعام وإذا نظر الناس بعين الإنصاف يجدونه بطل العصر الحاضر بين جميع الأمم لا بين المسلمين وحدهم»[٢].

لقد عرف عن عبدالكريم الخطابى أنه مناضل وطنى غير متعصب للدين، فتح باب الريف أمام الصحفيين الأجانب أياً كانت جنسيتهم، لكن روح الكبرياء القومى هو الذى ملأ صدر عبدالكريم نحو حق تقرير المصير.

قال جبر ييلى إن عبدالكريم لم يعلن الجهاد لأن الزمن ليس العصور الوسطى أو الحروب الصليبية. بل إنه يرغب ببساطة فى أن يعيش مستقلاً، وألا يحكمه إلا الله، وأنه يرغب فى العيش فى سلام، وأنه فى سبيل تحقيق هذا الاستقلال سيناضل ضد العالم كله إذا تطلب الأمر[٣].

ومهما يكن من أمره، فإن ثورة محمد عبدالكريم الخطابى ضد الأسبان والفرنسيين قد لعبت دوراً ضد هذين الاستعمارين، وكانت علامة بارزة فى حركة المقاومة السياسية فى المغرب، ومصدراً للإلهام والإرشاد للشباب المغربى فقد هزت هذه الثورة الريف هزاً، ودكت عروش الإمبراطوريتين يالفرنسية والأسبانية ووضعت لبنات المقاومة الوطنية التى لم ينطفئ نورها إلا بإعلان استقلال المغرب فى الخمسينات من القرن العشرين.

لقد كانت الثورة درساً أفاد الوطنيين، واستفادوا منه فى معارك

---

(١) إبراهيم شحاته حسن: نصوص ووثائق تاريخ المغرب، ص ٢٠٨.

(٢) شكيب أرسلام: حاضر العالم الإسلامى، القاهرة ١٣٥٢هـ. جـ٣ ص ١٨٤.

(٣) محمد خير فارس: مرجع سابق، ص ٤٣٦.

التحرير، فقلد محا عبدالكريم أثار نصر الحرب العالمية الأولى أمام الفرنسيين، ولقنهم دروساً فى القتال لم يألفوها فى شمال أفريقيا، ووضع بذور الحركة القومية أمام الشباب المغربى الذى استلهم الرشد والصواب من حركة هذا الزعيم، وحارب، وقاوم حتى تحقق الاستقلال النهائى للمغرب كله.

نهاية الإستعمار الأسبانى بالمغرب:

بدأت سنة ١٩٢٦ تظهر بالمغرب الأحزاب الوطنية المطالبة بالإستقلال وبعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) لعب السلطان **محمد الخامس** دوراً هاماً فى مساندة الحركة الوطنية حتى أن فرنسا اقدمت على خلعه فى عام ١٩٥٣ واحلت (محمد بن عرفه) محله، ولكن أضطرت السلطات الفرنسية لإعادة السلطان محمد الخامس لعرشه والإعتراف باستقلال المغرب فى عام ١٩٥٦,

وحاولت أسبانيا أن تتمسك بوضعها لكنها أضطرت فى نفس العام للاعتراف بإستقلال منطقة الريف أيضاً ـ ولما كانت (طنجة) تحت إدارة دولية فقد وافقت الدول على أن تعود للمغرب سيادته عليه من يناير ١٩٥٧.

كما إنسحبت أسبانيا من مدينة **افنى**، وبعد المسيرة الخضراء التى دعا إليها الملك الحسن الثانى ملك المغرب أضطرت أسبانيا لعقد اتفاقية بينها وبين المغرب وموريتانيا انسحبت بموجبها أسبانيا من منطقة **الصحراء الغربية** التى كانت تطلق عليها اسم (الصحراء الأسبانية) والتى ترجع أهميتها لوجود معدن الفوسفات فيها ـ لكن تجددت مشكلة الصحراء واشتدت بظهور جبهة (البوليزاريو) المطالبة باستقلال الاقليم وإقامة جمهورية صحراوية فيه[1] هذا ومازالت المناطق الساحلية السابق إستعمارها (مليلة، وسبته) فى يد الأسبان، وبالطبع يتطلع المغاربة لعودتها للمغرب الأم، ولعل مصير هذه المناطق مرتبط بموضوع جبل طارق الأسبانية التى لاتزال فى يد انجلترا والتى ترجع أهميتها لتحكمها فى مدخل البحر المتوسط الغربى.

---

(١) للمزيد من المعلومات عن مشكلة الصحراء المغربية يرجع إلى شوقى الجمل، عبدالله عبدالرازق: قضايا ومشكلات أفريقية معاصرة (القاهرة ٢٠٠١).